

حياة أعظم الرسل

عظمة محمد في تواضعه

## عظمة محمد في تواضعه

كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
يُحِبُّ التَّوَاضُّعَ كُلَّ الْحُبِّ ، وَيَكْرَهُ الْكِبَرَ  
وَالْتَّكَبُّرَ كُلَّ الْكُرْهِ . يَظْهَرُ بِطَبِيعَتِهِ  
الْحَقِيقِيَّةِ ، وَلَا يَتَكَلَّفُ وَلَا يَتَصَنَّعُ ،  
وَلَا يُحِبُّ التَّعَاضُّمَ وَالتَّظَاهَرَ بِالْغِنَى أَوْ  
الْقُوَّةِ أَوْ السُّلْطَانِ . فَفِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا كَانَ  
مَثَلًا كَامِلًا ، مُتَوَاضِعًا فِي غَيْرِ ضَعْفٍ ،

سَهْلًا لِّنَّا فِي غَيْرِ عُنْفٍ .

كَانَ سَيِّدًا لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ، وَمَعَ  
ذَلِكَ كَانَ يَعِيشُ عَيْشَهُ طَبِيعِيَّةً سَهْلَةً ،  
خَالِيَةً مِنْ مَظَاهِرِ السُّلْطَةِ . اشْتَرَكَ فِي بِنَاءِ  
الْمَسْجِدِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى  
نَفْسِهِ فِي كُلِّ عَمَلٍ ، وَلَمْ يَتَّكِلْ عَلَى أَحَدٍ  
لِيَكُونَ بَدَلًا مِنْهُ فِي الْعَمَلِ .

مَاتَ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمُ ، فَكُسِفَتِ الشَّمْسُ .  
فَقَالَ النَّاسُ : إِنَّ الشَّمْسَ كُسِفَتْ لِأَجْلِ  
مَوْتِ إِبْرَاهِيمَ . فَقَامَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي الْمَسْجِدِ ، وَقَالَ : « إِنَّ الشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ آيَتَانِ ( عَلَامَتَانِ ) مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ،  
لَا تَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ : فَإِذَا  
رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ ، وَصَلُّوا  
وَتَصَدَّقُوا » . وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ الْأَمِينُ  
مِمَّنْ يَتَصَيَّدُونَ الْأَدِلَّةَ لَسَكَتَ وَهُوَ  
حَزِينٌ ، وَوَافَقَهُمْ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكُسُوفَ  
آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَمُعْجَزَةٌ مِنْ مُعْجَزَاتِ  
رَبِّهِ .

وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ مُسَافِرًا ، فَأَمَرَ



أَصْحَابَهُ بِإِصْلَاحِ شَاةٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ :  
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلَى ذَبْحُهَا ، وَقَالَ  
آخَرُ : عَلَى سَلْخُهَا ، وَقَالَ ثَالِثٌ : عَلَى  
طَبْخُهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : « وَعَلَى  
جَمْعِ الْحَطَبِ » .

فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَكْفِيكَ الْعَمَلَ .  
فَقَالَ : عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَكْفُونَنِي وَلَكِنْ  
أَكْرَهُ أَنْ أَتَمَيِّزَ عَلَيْكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ مِنْ  
عَبْدِهِ أَنْ يَرَاهُ مُتَمَيِّزًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ » .  
وَبَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَانْتِصَارِهِ عَلَى

الْكُفَّارِ مِنْ قُرَيْشٍ جَاءَ رَجُلٌ — وَهُوَ  
يَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ — لِيُبَايِعَ الرَّسُولَ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَشْهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ  
إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ  
الرَّسُولُ : « هَوْنٌ عَلَيْكَ ( سَهْلٌ عَلَى  
نَفْسِكَ ) ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا  
ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ  
( اللَّحْمَ الْمُقَدَّدَ ) » . وَمِنْ أَقْوَالِهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ

كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ( قَدْرُ أَصْغَرِ  
نَمْلَةٍ ) مِنْ كِبَرٍ » .

عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ يَصِفُ الرَّسُولَ :

قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ : دَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدٍ  
وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَنْ  
الرَّجُلُ ؟

فَقُلْتُ : عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ .

فَقَامَ الرَّسُولُ ، وَذَهَبَ بِي إِلَى بَيْتِهِ ، وَفِي  
أَثْنَاءِ ذَهَابِنَا لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةٌ السِّنِّ ،



فَطَلَبْتُ مِنْهُ الْوُقُوفَ ، فَوَقَفَ مَعَهَا مُدَّةً  
طَوِيلَةً ، وَهِيَ تُكَلِّمُهُ وَتَصِفُ لَهُ حَالَهَا .  
فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَيْسَ هَذَا بِمِلْكٍ .

ثُمَّ ذَهَبَ بِي رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى إِذَا دَخَلَ  
بِي بَيْتَهُ ، تَنَاوَلَ وَسَادَةً ( مِخْدَةَ ) مِنْ  
الْجِلْدِ ، مَحْشُوَّةً لَيْفًا ، وَقَدَّمَهَا إِلَيَّ ،  
وَقَالَ لِي ، اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ .

قُلْتُ : بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عَلَيْهَا .  
فَقَالَ : بَلْ أَنْتَ فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا ،  
وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ . وَأَخَذَ



يَسْأَلَنِي أَسْئَلَةً ، وَأُجِيبُهُ عَنْهَا ، حَتَّى  
تَأْكُذْتُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، يَعْلَمُ  
أَشْيَاءَ لَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ .

ثُمَّ قَالَ : لَعَلَّكَ يَا عَدِيٍّ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ  
مِنْ دُخُولٍ فِي هَذَا الدِّينِ مَا تَرَى مِنْ  
حَاجَتِهِمْ ( فَقَرِ الْمُسْلِمِينَ ) ، فَوَاللَّهِ  
لَيُوشِكَنَّ ( لَيُسْرِعَنَّ ) الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ  
( يَكْثُرَ ) فِيهِمْ حَتَّى لَا يُوجَدَ مَنْ  
يَأْخُذُهُ . وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ  
فِيهِ مَا تَرَى مِنْ كَثَرَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَقِلَّةِ

عَدَدِهِمْ ، فَوَاللَّهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ  
بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ ( بَلَدَةٌ قُرْبَ  
الْكُوفَةِ بِالْعِرَاقِ ) عَلَى بَعِيرِهَا ( جَمَلِهَا )  
تُزُورُ هَذَا الْبَيْتَ لَا تَخَافُ . وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا  
يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولِ فِيهِ ( فِي هَذَا الدِّينِ )  
أَنَّكَ تَرَى أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ فِي  
غَيْرِهِمْ . وَأَيُّمُ اللَّهِ ( أَحْلَفُ بِاللَّهِ )  
لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبَيْضِ مِنْ  
أَرْضِ بَابِلَ ( إِسْمُ مَوْضِعٍ بِالْعِرَاقِ ) قَدْ  
فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ .

قَالَ عِدِّي : فَأَسْلَمْتُ .

وَقَدْ تَحَقَّقَ كُلُّ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِدِّي . وَرَأَى الْمُسْلِمِينَ  
وَقَدْ فَتَحُوا الْقَادِسِيَّةَ وَالْقُصُورَ الْبَيْضَاءَ مِنْ  
بَابِلَ .

الرَّسُولُ يَكْرَهُ التَّصْنُعَ :

كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
يُحِبُّ الْحَقِيقَةَ ، وَيَكْرَهُ التَّصْنُعَ  
وَالتَّكْلُفَ ، وَيَمَقُّ ( يُغِضُّ وَيَكْرَهُ )



الزَّخْرَفَةَ فِي الْكَلَامِ ، وَالتَّظَاهُرَ  
بِالْفَصَاحَةِ فِي الْخُطَابَةِ ، وَيَقُولُ : « مَنْ  
تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ ( حِيلَةَ الْكَلَامِ  
وَالْتَّصَرُّفَ فِيهِ ) لِيَسْتَبِي ( لِيَمْلِكَ ) بِهِ  
قُلُوبَ الرِّجَالِ ، لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا » . ( الصَّرْفُ :  
التَّوْبَةُ ) .

« إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي  
مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا .  
وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي

يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ ( الْكَثِيرُ الْكَلَامِ  
 مَعَ التَّكْلِيفِ ) ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ  
 ( الْمُتَكَلِّمُونَ بِمَلَأِ أَفْوَاهِهِمْ مَعَ التَّظَاهُرِ  
 بِالْفَصَاحَةِ ، وَالْمُتَفَيِّهُونَ ) . قَالُوا  
 يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ ؟ قَالَ :  
 الْمُتَكَبِّرُونَ .

الرَّسُولُ يَحْلُبُ النَّعْجَةَ بِنَفْسِهِ :

فِي أَثْنَاءِ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ مَرَّ  
 الْمُصْطَفَى وَمَنْ مَعَهُ بِخِيْمَةٍ أُمِّ مَعْبِدٍ .  
 وَهِيَ سَيِّدَةُ عَرَبِيَّةٌ كَرِيْمَةٌ : فَسَأَلُوهَا عَنْ

تَمْرٍ ( بَلَحٍ ) أَوْ لَحْمٍ يَشْتَرُونَهُ ، فَلَمْ  
يَجِدُوا عِنْدَهَا شَيْئًا مِنَ التَّمْرِ أَوْ اللَّحْمِ .  
فَقَالَتْ لَهُمْ : وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ  
لَقَدَّمْنَاهُ لَكُمْ . فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى نَعْجَةٍ فِي رُكْنِ الْخِيَمَةِ .  
فَقَالَ : « مَا هَذِهِ الشَّاةُ ( النَّعْجَةُ ) يَا أُمَّ  
مَعْبِدٍ ؟ فَقَالَتْ :

هَذِهِ شَاةٌ لَمْ تَذْهَبْ مَعَ الْغَنَمِ لِتَعْبِهَا  
وَضَعْفِهَا . فَقَالَ الْمُصْطَفَى :  
هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ فَقَالَتْ : إِنَّهَا فِي



شِدَّةِ الضَّعْفِ ؛ فَلَا نَأْخُذُ مِنْهَا أَى لَبَنٍ .  
فَقَالَ : أَتَأْذِنِينَ ( هَلْ تَسْمَحِينَ لِي ) أَنْ  
أَحْلُبَهَا ؟

وَأَمْسَكَ بِهَا . وَمَسَحَ ضَرْعَهَا ( مَا فِيهِ  
الثَّدْيُ ) ، وَقَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ . اللَّهُمَّ ( يَا اللَّهُ ) بَارِكْ لَهَا فِي  
شَاتِهَا ( نَعَجَتِهَا ) » .

فَامْتَلَأَ ضَرْعُ النَّعْجَةِ لَبَنًا ، وَكَثُرَ  
لَبْنُهَا ، فَطَلَبَ إِنَاءً كَبِيرًا ، فَحَلَبَ فِيهِ  
حَتَّى مَلَأَهُ ، فَسَقَى أُمَّ مَعْبَدٍ ،

فَشَرِبَتْ حَتَّى اكْتَفَتْ ، وَسَقَى  
أَصْحَابَهُ ، وَشَرَبُوا مَا أَرَادُوا مِنَ اللَّبَنِ .  
وَشَرِبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرَهُمْ ،  
وَقَالَ : « سَاقَى الْقَوْمِ آخِرُهُمْ » .

وَالرَّسُولُ هُنَا أَحْسَنُ قُدْوَةٍ ( مَثَلِ )  
فِي الْآدَابِ الْعَامَّةِ ؛ فَقَدْ كَانَ مُتَوَاضِعًا  
وَحَلَبَ النَّعْجَةَ بِنَفْسِهِ ، وَسَقَى أُمَّ مَعْبِدٍ  
أَوَّلًا ، قَبْلَ غَيْرِهَا مِنَ الرُّجَالِ . وَهَذَا  
مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ الْمُتَمَدِّدُونَ الْيَوْمَ فِي  
قَوْلِهِمْ :

السَّيِّدَاتُ أَوَّلًا . وَقَالَ الرَّسُولُ  
الْعَظِيمُ : « أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ؛  
حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » .  
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَحْمِلُ بِنَفْسِهِ  
مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَيَقُولُ : « صَاحِبُ  
الْحَاجَةِ أَحَقُّ بِحَمْلِهَا » . وَقَدْ حَثَّ عَلَى  
التَّوَاضُعِ ، وَقَالَ : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ  
مِنْ مَالٍ . وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا .  
وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ » .